وليس عبثاً ان يستكمل المرزوقي ماكان قد نقص عند القاضي الجرجاني وما اضافة ليس بالهين فتماسك النص وتلاحمه اساس كان ابن طباطبا كما مربنا قد الح عليه الحاحاً شديداً . ولاتقل الاستعارة اهمية في ذلك في اي نص شعري .

الاستعارة في نظرية عمود الشعر :

والمتتبع لموقف النقاد العرب من الاستعارة لا يستطيع الا ان يلاحظ اهمالاً لهذا العنصر الجوهري ومرد ذلك فيما نعتقد ان القصيدة العربية القديمة لم تكن تعول كثيراً على الاستعارة من جهة ، ولارتباط الاستعارة بالبديع عند المحدثين جعلها في نظر الناقدين عنصراً زخرفياً اكثر من كونها عنصراً جوهرياً لا يخلو شعر منه .

وقد رأينا ان الامدى انكر على ابي تمام استعاراته وغلطه فيها وعدها في معظمها خروجاً على طريقة العرب الاوائل .

ويتمثل هذا الخروج في امرين .. الاول أسراف ابي تمام في الاعتماد على الاستعارة دون التشبيه .. والثاني اغرابه فيها . ان تطور الشعر العربي يدلنا على الاستعارة لم تكن صورة سائدة في القصيدة العربية في عصر ابي تمام ، فقد كان التشبيه هو الصورة الغالبة . آية ذلك ان ابن طباطبا وهو يحاول ان يدل الشاعر الحديث على طريق للخروج من محنته بنى القصيدة العربية على غرار القصيدة التقليدية من حيث المعاني والتشبيه . وقد فصل القول في التشبيه وانواعه وادواته وما في التشبيهات من حسن وقبح ، وعلى نحو لافت للنظر حقاً(١٦) .

وقد اغفل الاستعارة ، الامر الذي يدل على ان ابن طباطبا يرى ان يبقى التشبيه اسلوب التعبير البياني كما هو الحال عند القدماء .. غير ان سيادة الصورة الاستعارية او على الاقل وقوفها جنباً الى جنب مع الصورة التشبيهية تمثل نقلة مهمة في تطور الشعر العربي فحيث تعتمد الصورة التشبيهية على الموازنة بين الاشياء وابقاء الحدود الفاصلة بينهما . تقوم الاستعارة على تدخل الاشياء والتكثيف والايحاء والحدس .

انه تحول وانتقال من ملكة الحس والخيال القريب المتصل به الى ملكة الفكر المجرد(١٧) . اننا نجد في موقف القاضي الجرجاني من الاستعارة تطوراً قياساً الى

---

(١٦) عيار الشعر ١٠ ، ١٧ ـ ٢٧

(١٧) تطور بناء القصيدة بين امرىء القيس وابي تمام ، مجلة الفكر العربي (العدد الاول) ١٩٦٨ ، ٤٢

موقف الامدي فعنده (الاستعارة احد اعمدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف)(١٨) . وهو اقرب الى ابن المعتز في الذي يقوله عن الاستعارة من الامدي .

فالاستعارة عنده من البديع(١٩) (وقد كانت الشعراء تجري على نهج منها قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام وتبعه اكثر المحدثين(٢٠) وما عيب على ابي تمام ليس الافراط في الاستعارة فقط وانما الاغراب ايضاً . وهو امر يقود الى الغموض الذي لا يستسيغه الذوق العربي بوجه عام . ومرد اغراب ابي تمام في الاستعارة انه يقيم علاقات بعيدة بين المستعار منه والمستعار له . وهو خلاف مايراه الجمهور . اذ ان ملاك الاستعارة عندهم (تقريب الشبه ومناسبه المستعار له للمستعار منه . وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لايوجد بينهما منافرة ولا يتبين من احداهما اعراض عن الاخر)(٢١) .

وعندما نرى ان موقف الجرجاني يمثل تطوراً من الاستعارة ومن العمود فلانه اولى الاستعارة اهتماماً (لم يولها الامدي) على الرغم من انه لم يعدها من اركان عمود الشعر . غير ان مجرد اشارته اليها وحديثه عنها يدلنا على ان النظرة اليها اختلفت بعض الشيء عن نظرة القدماء لها . ولم يكن بمستطاع المرزوقي بعد ابي تمام ورسوخ الصورة الاستعارية ومذهب البديع ان يغفل هذا الركن في القصيدة على نحو مافعل الامدي . والى حدما القاضي الجرجاني . لذلك فقد اضافها الى اركان عمود الشعر وهي اضافة استكملت ماكان قد نقص في نظرية عمود الشعر .

ان صياغة المرزوقي لعمود الشعر على نحو مارأيناه تمثل محاولة لوصل ما انقطع من التصور القديم لما ينبغي ان تكون عليه القصيدة العربية والتطور الجديد الذي اصابها وهو امر جدير بالاعتبار ..... ذلك انه يعد موقفاً صريحاً في الانتصار لمذهب ابي تمام(٢٢) ومع انه امر مهم ان يكون موقف المرزوقي كذلك . غير ان الاهم ان نشير الى ان عمود الشعر عنده لم يعد الصورة النموذجية الوحيدة الذي تقاس عليه اية قصيدة جديدة كما كان الحال عند الامدي .. لقد كان موقف الامدي

---

(١٨) الوساطة ٣٤

(١٩) السابق

(٢٠) السابق ٤٢٩

(٢١) الوساطة ٤١

(٢٢) ظاهر الاخضر ، منهج ابي علي المرزوقي في شرح الشعر (تونس ١٩٨٤ ١٩١ .

من العمود سبباً في اخراج ابي تمام منه اما عند المرزوقي فلم يعد ابو تمام خارجاً عليه وانما منضو تحته .. شأنه شأن البحتري غير ان هذا لايعني ان ليس بينهما اختلاف او انهما لايمثلان تيارين متميزين . انهما حقاً كذلك ولكن في دائرة الشعر العربي على حين انهما كانا عند الامدي يمثلان تيارين منفصلين احدهم داخل الدائرة والاخر خارج عليها .

اركان عمود الشعر ومعاييره :

مربنا ان اركان عمود الشعر كما استقر عليه المصطلح عند المرزوقي سبعة . وقد جعل لكل منها معياراً وفيما يأتي تفصيل ذلك :

١ . شرف المعنى وصحته : والمراد بذلك ان لايكون في المعنى اضطراب اوسوء ترتيب . او انتقاص من بعضه لبعض(٢٣) وعيار هذا العقل الصحيح والفهم الثاقب فاذا ماوجد المعنى قبولاً لدى العقل ولذة وانعطافاً نحوه كان المعنى شريفاً صحيحاً . ويستكره العقل المعاني التي فيها معاظلة وانغلاق والجدير بالذكر ان ابن طباطبا جعل عيار الشعرأن يورد على الفهم الثاقب فما قبله واصطفاه فهو واف ومامجه ونفاه فهو ناقص(٢٤) .

٢ . جزالة اللفظ واستقامته : ويراد بالجزالة هنا اللفظ القوي الشديد وهو خلاف الركيك (وظاهر ان مرجع هذا الى معنى اللفظ المركب او المفرد لا الى مبناه وصورته) .

فليست الجزالة تنافر الحروف ولا تنافر الكلمات وغرابة الكلمة . فأبن رشيق ذكر الجزالة وعطفها على الفخامة(٢٥) .

وعيار اللفظ كما يقول المرزوقي ثلاثة . الطبع والرواية والاستعمال(٢٦) .

اما الطبع فملكة في المنشيء تثقفها المدارسة والرواية . والاستعمال معيار يقاس به الحوشي والمأنوس .

٣ . الاصابة في الوصف : والمقصود ان يصور الشاعر مايريد التعبير عنه تصويراً مطابقاً لواقع الشيء الموصوف في الخارج(٢٧) وعيار هذا حسن التمييز والذكاء(٢٨)

---

(٢٣) محمد الطاهر بن عاشور ، شرح المقدمة الادبية (بيروت ١٩٥٨) ٥٩ ، ٨٠

(٢٤) عيار الشعر ١٤

(٢٥) شرح المقدمة الادبية ٦٣

(٢٦) مقدمة شرح الحماسة ٩

(٢٧) شرح المقدمة الادبية ٦٧

(٢٨) مقدمة شرح الحماسة ٩